ليلى عسيران: فلسطين، ولبنان، وإنسانيّتي

حوارات مع روائيين لبنانيين (I)

ليلى عسيران

يُسري الأمير

تعود الآداب إلى حوارات مع الروائيين اللبنانيين، هادفةً إلى أن يكون ذلك مدخلاً للغوص في تاريخ هذه الرواية. فهذه الرواية تخوض في تجريب جنسها في مرحلة ما بعد الحداثة، والمعلوماتية، ووجود أشكال جديدة للتعبير تكاد أن تنحصر في ميدان التكنولوجيا ونظم شبكات الكمبيوتر التي تدخل المجال الإبداعي. وتجد هذه الرواية ذاتها في تحديات الرواية العربية الباحثة عن ذات وهوية، والمدافعةِ عن نفسها ضدّ تُهَم الاغتراب والتقليد. وتحاول أن ترسم رؤيتها إلى العالم عبر فرادة تجربتها، سواء أكان ذلك في تجربة الحرب الأهلية الطويلة، أم في تجربة الأوضاع الاجتماعية اللبنانية الخاصة التي تمنع لبنان حتى الآن من الوصول إلى مرحلة السلم الأهلي المنشود.

لقد أردنا أن يكون نقاشنا مع الروائيين اللبنانيين واسعاً، حرصاً منا على رسم صورة شاملة لإبداعهم، ترصد حدود التداخل بين الخاص والعام، وبين النص المكتوب والمرجع الحي. وفي هذا السياق، نسعى إلى أن نجعل من المُحاوَر مشاركاً في صياغة الحوار وشكله، وذلك عبر فسح المجال أمام خروجه على نسق الحوار أو توجهه، اقتناعاً منّا بأن هذا جزءٌ من الموضوع الإبداعي الذي نتطرّق إليه مع مبدعه.

وقد بدأتْ حواراتُنا مع ليلى عسيران. وللأمانة أعترف أن الحوار الحقيقي معها كان خارج هذه السطور. وكان مُضْنياً أن تُقْنع هذه الإنسانة الشفافة بكشف نفسها أمام جمهور مجهول، دون ضوابطها الخاصة التي تمارسها خلال كتابتها الخاصة. وكان منهِكاً أن تَحدّ الطفلة التي فيها، تلك التي خرجتْ منها بعد كل هذه السنين. وللحديث معها ضوابط تفرضها رغبتُها في الحياة كما تراها: فلم نستطع أن ندخل معها في حوار نقدي أدبي عن الرواية العربية واللبنانية؛ وكان الأسى المرتسم على حركاتها مانعاً من الخوض في مسارها التاريخي النضالي؛ وأخيراً فإنّ رغبتها الجارفة في العيش والسلام قد حدّت من الدخول في سجالات الآني الذي لا تغفل خطورته.

أنهت ليلى عسيران حديثها بـ «أكتفي بهذا»... غير أنّ ما اكتفتْ به كان أقلّ من كافٍ، وأكثر من حديث. وهذا الحوار صار ملكاً لقارئ مجهول، وجزءاً من أحاديث أخرى سنجريها مع كتّاب روائيين لبنانيين آخرين.

يُسري...

*** نبدأ بتمهيد أوّلي عن الكتابة، أو بدايتها بالنسبة إليك في الستينات.**

– رغم أنّ الموضوع مُعاد وعادي جداً، فإنّنا يمكننا اختصارُهُ برغبة إنسانة في الكتابة الروائية، إنسانة ظنّت أن القصة القصيرة والصحافة هما أول الطريق للكتابة. فقد كتبتُ القصة القصيرة، ونشرتُ عدداً من الأقاصيص التي لم يعد لديّ نسخ منها، وكان ذلك هو البداية. وللتاريخ أذكر بعضَ مَنْ كان لهم فضلٌ في تشجيعي على طريق الكتابة: ومنهم المرحوم الأستاذ أحمد بهاء الدين، المثقف والكاتب السياسي المصري. فـ«بهاء» أمسك بي مرّةً، وكنا نجلس في مقهى بسيط على النيل، وقال لي: «لا تقعي أبداً، بل حاولي دائماً، وإياك وفخّ الإعلام، والاعتياد على رؤية اسمك في الإعلام؛ فعلى مَنْ يودّ أن يكتب الرواية أن يحتمل فكرة عدم تداول اسمه في فترة ما؛ من يود أن يكتب الرواية يجب أن ينتشر في دنياه الداخليّة والخارجية على حد سواء، ويجب أن يقرأ».

عشتُ في مصر أثناء دراستي الثانوية، لكنني عدتُ إلى لبنان وعملتُ في الصحافة هنا، وتعرّفتُ على الكتّاب المصريين هنا، وراسلتُ مجلّتيْ **صباح الخير وروز اليوسف** في أوجها. ثم عدتُ إلى مصر، وغطستُ في الجنّة، إذ كانت مصر آنذاك تحيا نشاطاً ثقافياً وفنياً لا مثيل له؛ وكانت دار «روز اليوسف» تعجّ بالسياسيين والكتّاب والصحافيين والرسامين، وقد دخلتُ في جوّهم وأنا في العشرينات من عمري، وأحببتهم وأحبوني بسرعة. ولذا فإني أعتبر أن لا فَضْلَ لي في ما كتبتُ لأنني تناولت غذاءً فكرياً جاهزاً.

كنّا ندخّن «غلْواز» ونسمع الموسيقى الفرنسية، ثم نتظاهر ضد عدوان فرنسا على مصر عام ٥٦

*** إذن هل تعتبرين أنّ المؤثرات الثقافية في مصر كانت الدافع الأول لنزعة الكتابة عندك؟ وما كان أثر الوضع الثقافي اللبناني عليك؟**

– لبنان الستينات شهد الكثيرَ من التطوّر اللغوي والفكري الموجود في الغرب. فكانت الأفكار الوجوديّة مع سارتر وكامو، والتقنيات المسرحية الجديدة مع يونيسكو وبيكيت، والشعر الفرنسي وتياراته مع إيلوار وبودلير وڤيرلين وأراغون – دون أن أنسى الأغاني الفرنسية وبخاصةٍ أغاني تلك المرأة غير الجميلة، الصغيرة حجماً والعملاقة صوتاً: إديث بياف –... كل تلك الموجات التنويرية أثّرتْ في التيارات الثقافية الحديثة في لبنان. وقد كان لي أصدقاء بين مبدعي تلك الفترة والمتأثرين بهذه الثقافة الغربية، إلا أنني كنتُ ممزقةً بين الانغماس في تلك التيارات وبين المد القومي في فترة صعود ظاهرة عبد الناصر التي شكّلتْ تعارضاً مع نزعة الاستغراب الثقافي. فتصوّرْ كيف يعيش المبدعُ مسكوناً من نزعتين قويتين في الوقت ذاته: نزعة وطنية ذات صرامة، وأخرى فكرية تحررية فنية لها قواعدُ ولكنها منفتحة وحرة. كيف يستطيع المرء أن يكون مناضلاً عائداً من مظاهرة منهكة وهو يدخن «غلْواز» ويسمع الموسيقى الفرنسية، ثم يخوض في الجدالات الفكرية الغربية، مدافعاً عنها، ويتظاهر ضد فرنسا إبّان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦!

سن العشرينات في جيلي كان بسيطاً ونقيّاً يقارب حَدَّ السذاجة، لا يَعْرف غيرَ الأبيض والأسود، ولا يستطيع أن يجمع شيئين يراهما متناقضين نظرياً، وإنْ كان يعيشهما عملياً. فقد كان المرء يخرج نهاراً في مظاهرة، ثم يعود ليلاً ويضع قرطاً في أذنه ويتحوّل إلى فتاة جميلة، وينزل إلى «الهورس شو» ويشارك في نقاشات مع مثقفين من شتى التيارات، ثم يشارك في حفلة صاخبة ليلاً!

*** وكيف ترين تأثير هذه الأجواء على الرواية في الستينات؟ وما أثر رواية الستينات عليك؟**

– كان أثر الأسلوب المصري أو الأجواء المصرية أكبر ممّا كانت عليه في لبنان. كانت قراءاتي في بيروت بمعظمها غربيّة، وكانت الموسيقى التي أسمعها أجنبية أيضاً، ولم أكن أعرف عبد الوهاب وأم كلثوم، وأنا أخجل من اعترافي هذا، لكنني في بيروت لم أجد دافعاً ضمن معارفي وعلاقاتي لأتعرّف على الثقافة العربية. ولذلك ذهبت إلى مصر فارْتَحْتُ لأنني لم أجد تناقضاً بين أسلوب التعبير والمد القومي. وهناك قرأتُ نجيب محفوظ ويوسف شاهين، وتعرفتُ على صلاح جاهين وآخرين ممن أمسكوا بيدي في خطوات الكتابة الأولى. أضفْ إلى ذلك أنه لم يكن في بيروت الستينات تجمُّعٌ أو مجلةٌ أو مؤسسةُ نشر تستطيع أن تفتح صدرها للكلام والممارسات المجسّدة للفكر القومي، وفي الوقت ذاته تستطيع أن تنفتح على الغرب وتستكشفه إلى أعماق تثوير الإبداع. كان لدينا في لبنان إمّا هذا وإمّا ذاك؛ والنسيج اللبناني مقدام وخلّاق ومنفتح وخالٍ من الممنوعات، إلا أنه فردي جداً.

*** ألا تعتقدين أن مجلّة** الآداب **جسّدتْ شيئاً من هذا التوجّه المزدوج، وأنّ «دار الآداب» التي واظبتْ على نشر الترجمات الغربية لسارتر وكامو وغيرهما كانت من المؤسسات التي أثّرت في تيارات الستينات الثقافية؟**

ـ لا شك أن مجلّة الآداب كان لها دور فعّال في نقل الفكر والأدب الغربيّيْن إلى اللغة العربية. وربما لم يكن ذنبُ القائمين على المجلة أنّ الكثير من الترجمات كانت تنقصها الدقة، وهو ما أحدث ـ وعن غير قصد ـ تعييراً لامس التحريف في المعنى. فعلى سبيل المثال مازلتُ أذكر أيَّ هزّةٍ أصابتني حين قرأتُ **الغثيان** لـ «جان بول سارتر» باللغة الإنكليزية. ومن فرط انفعالي بطرح سارتر، ابتعتُ النسخةَ الفرنسية التي لا أجيدها كالإنكليزية، فأضافتْ مطالعتي البطيئة جداً للنسخة الفرنسية ما يسمّى أجواء الفكر أو الحرارة أو الطقس الذي يضفيه الأسلوبُ على أيِّ مخطوطة؛ فلا تنسَ أن سارتر كان أديباً مثلما كان مفكّراً. لكنْ، في مرحلة لاحقة، تناولتُ نسخةً مترجمةً إلى العربية، فقرأتُ ترجمةَ كلماتٍ وحسب[؟!]. أنا لا أنفي دور الآداب الثقافي، ولا تخالني غيرَ واعيةٍ أنّ فترة الستينات الثقافية كان ينقصها عناصرُ تجيد لغتين أو أكثر، إنما تلك كانت إمكانيات العصر. ولا تنسَ أن تعلُّم اللغة الأجنبية يفترض وجود مستوى اجتماعي يخوّل جيل الآباء أن يرسلوا أولادهم إلى مدارس أجنبية؛ وهذه مشكلة عميقة وجذرية لا تقتصر على الآداب، بل هي نتيجةٌ لعدم الاكتمال والتوازن الثقافي في الدول النامية كافةً. ولا شك أن الآداب سبقتْ غيرها إلى تعريف القارئ على ما يؤهله إلى العصر؛ فالدكتور سهيل إدريس ـ بالنسبة إليّ ككاتبة ـ مرجعٌ، وأبٌ للحركة الثقافية ذاتِ الأبعاد الوطنية.

*** ضمن علاقاتك الشخصية بمثقفي تلك الفترة، وضمن كتاباتك، أيُّ موقف كنتِ تتخذينه وكيف عبّرتِ عنه روائياً، ولاسيما أن رواياتك الأولى** (لن نموت غداً، والحوار الأخرس، والمدينة الفارغة) **تناولتْ تفاصيل المجتمع اللبناني سياسياً وفكرياً ونزعاتِ تحرر؟**

ـ كان على ليلى عسيران أن تكتشف ذاتها، وبيروت ـ هذه المدينة القاهرة الملوّنة ـ مفتوحةٌ على الآفاق لا يحدّها أيُّ رادع. بيروت تلك قدّمتْ ثقافاتٍ متنوّعة تتنازع المرء، وكانت لديَّ رغبةٌ جامحةٌ في الانغماس بكل التيارات التي انفتحت، وخاصةً التيار الوطني وصراعه مع ما كان يسمى بالانعزالية اللبنانية. أنا كنت شديدة الإحساس بعروبتي، لكنّ ذلك لم يمنعني من اكتشاف نماذج لافتة للغاية في أجواء ومجتمعات لا أشاركها الرأي سياسياً، وإنما التقيت معها على المستوى الحضاري فحسب: الفن والموسيقى، وتأثير الأفكار الفرنسية ونمط الحياة الغربي ضمن الطابع الشرقي، والشعر، وغير ذلك من المستويات الثقافية. وقد تعرّفتُ على أراغون وبودلير وپروست في «بيروت الشرقية»، وسمعتُ عن بيكيت ويونيسكو، ودرستُهما بعناية على يد أشخاص من خارج المنظومة الفكرية العربية الوحدوية. وقد كنت أصاب بالحيرة المقلقة وأفتش عن المكان المعنوي الذي أنتمي إليه. مرحلة اليسار وضعتني في قفص اتهام لأنني من «بنات العائلات»، ولم تعطني الإحساس بالأصالة ذات السمات الوطنية، لأنّ اليسار كان يستخفّ بمثل هذه الأصالة. وكل هذا دفعني إلى شيء من الارتباك النفسي، إذ كان عليَّ أن أقارب بين لبنان، هذا الوطنِ الشديدِ الخصوصية، ومفهوم العروبة. هناك حادثة طريفة تأخرتْ حتى حدثت، لكنها أيقظتني كلَّ الإيقاظ من الأوهام والأحلام، وذلك حين عاد ابني إلى بيروت بعد أن أمضى سنة كاملة في الجامعة في الولايات المتحدة، وهناك صادق عدداً كبيراً من الطلاب العرب، فإذا به، وفي غمرة حماسي للدفاع عن عروبتي، يقول: «إما أننا في لبنان عرب، وباقي العرب ليسوا عرباً؛ وإما إنهم هم العرب، ونحن لسنا عرباً!». هي طرفة مختصرة، لكنها أيقظت فيّ شيئاً ما.

مرحلة اليسار وضعتني في قفص اتهام لأنني «من بنات العائلات»، واستخفّت بـ «الأصالة» الوطنية

*** تحدّثتِ في مقابلة صحفية سابقة عن فشل ما كان يُعرف بجيل الستينات، وعن «الأوهام». فهل تشرحين لنا ما هو ذلك الفشل وما هي هذه الأوهام؟ وهل صراعكم الذي استمر خلال سنيّ الحرب بأشكال عنيفة انتهى اليوم، وعند الجميع؟**

ـ عندما أقول إنّ جيل الستينات فشل، فإنني في الحقيقة أعني أنّ من الخطإ مقارنة جيلٍ توهّجَ وأعطى، فأغنى وظلّ يعطي إلى اليوم، بجيل يعاصر مفاهيم مختلفة للغاية، ويتّسم بسطحية مرهقةٍ لتفاهتهِ. ما أعنيه بالفشل أنّ الجيل الذي أنتمي إليه لم يتسنّ له أن يرسِّخ تَرِكَتَهُ في الحاضر، وأَشْعُرُ بخيبة لوجود هذه الهوّة بين فتى في العشرين بالمقارنة بشباب العشرين من جيلي. كيف السبيل إلى رفع الجيل الذي تلا جيلي، وفق المقتضيات والإمكانيات الهائلة المتاحة لشباب اليوم وشاباته، إلى مستوى يمكّنهم من إعطاء الحاضر معناه على الأقل، وزرعِ هذا الشباب ببعض الجديّة والارتباط بالشأن العام، والابتعادِ عن السلبية؟ ما هي حلول هذه الجيل لمشاكلنا؟ أين براعم الثقافة لديهم؟ من هم أساتذة هذه الأيام؟ إنّه قحطُ اليوم، في مقابل عبقرية جيل الستينات التي تسري إلى اليوم. لكنْ يبقى السؤال: لماذا ظنَنّا أنّ

الوحدة سوف تتحقق؟ وأننا سنغيِّر ونبدّل؟ لقد حصلتْ تبدلات بالطبع، لكنّ ثلث الجنوب مازال محتلاً، والجولان مازال محتلاً، وما زالت الحريةُ مربوطة بخيوط قومية، والثقة مفقودة، والصلة ضائعة بين الحكّام والمثقفين، وبين جيل وجيل آخر من المثقفين. نحن، المغضوبَ علينا، حول رقابنا حبلٌ يتّهمنا بأننا سبب التراجع. لا شك أنني أشعر بوطأة الفشل نظراً لسوء التفاهم الكبير بين جيلي واللاحقين، وهو سوء تفاهم يخلق ضياعاً وخوفاً عليهم وعلى مصير المواهب التي تكتفي بوجود الموهبة فقط، دون إغنائها بالجدية والمثابرة والتعب والاهتمام بالتفاصيل حتى الوصول إلى جذور الأشياء. إنّ ما هو مطروح على مستقبلنا مازال مبهماً؛ فهل نحن بانتظار غودو، كما قال بيكيت، لكي نكافح الجوع وعدم الكفاية؟

*** إذن هل كانت الحقائق التي دافعتم عنها أوهاماً؟ وهل انتهى صراعكم؟**

ـ لن أُطْلق التسميات التي استُخْدِمَتْ ببديهية، مثل: «وطني»، «وانعزالي»...؛ فقد تغيرت الظروف ونشأتْ معطياتٌ جديدة لا تلغي القواعد الرئيسية بالتأكيد. ولكنّني من الأشخاص الذين يتطلّبون من أنفسهم الصدقَ. وإنّ الصدق يملي عليَّ حقي في أن أسأل: هل انتهت الإرادةُ الإبداعيةُ في الفكر القومي؟ هذا سؤال خطير جداً. أما بالنسبة إلى لبنان فلقد تبيّنتْ لي روعةُ خصوصيته، وأنا على استعداد ـ على الرغم من دخولي الشيخوخةَ من بابها الواسع ـ أن أستميت في المحافظة على خصوصية هذا البلد. أما بالنسبة إلى سؤالك عن صراعنا فإنني أسألك: لماذا رنّة التحدي في هذا السؤال؟ لقد قلتُ لك إنني أنا الشيخة (طبعاً بغير معناها الخليجي) على استعداد للاستماتة من أجل خصوصية لبنان، والاستماتة هنا ليست في حمل السلاح ضد الذات. وهل يُسمح بحمل السلاح ضد العدو الرئيسي؟ وهل يملك ابن الشريط المحتل طاقة أكثر مما بذله وما زال يبذله لمحاربة العدو، أو ببساطة ليحيا بأمان، وليحتفظ بالبيت والأطفال؟ فالخونة ليسوا مقتصرين على بقعة من الوطن العربي، بل إنّ العروبة ملآنة بالخيانة. وأهم أشكال هذه الخيانة إيهام الذات، وعدمُ التجنيد الثقافي القومي لمواجهة المد الصهيوني. إنّ الصهاينة ليسوا طاقةً لا تقهر، وإنما ليس أمامهم أعداء!

*** انشغلتِ بعد رواياتك الثلاث الأولى بالهمّ الفدائي الفلسطيني، فكانت رواياتك عصافير الفجر، وخطّ الأفعى، في الوقت الذي كانت فيه روايات لبنانية ـ مثل عودة الطائر إلى البحر [لحليم بركات] وطواحين بيروت [لتوفيق يوسف عوّاد] ولا تنبت جذور في السماء [ليوسف حبشي الأشقر] ـ تدخل في عمق الأزمة وتُنذر بحرب قادمة. فكيف تعللين ابتعادك عن الخصوصية اللبنانية يومها، ودخولَك في فضاء الرؤية القومية الإيجابية للعمل الفدائي؟**

ـ كان في حياتي صراع دائم بين التوق الأدبي وارتباطي بالحدث القومي. ثم إنّ **المدينة الفارغة** تعبّر عن إحباط. تصوَّرْ أنني وصفتُ بيروت المتألقة بالمرأة الجميلة التي لا عقل لها ولا ذكاء. وبعملي هذا اقترفتُ جريمةً بحق بيروت. اليوم أتذكر: من أعطاني حريتي غير بيروت؟ لقد سبق أن ذكرتُ تأثير القاهرة على تكويني، لكنّ مرجعي وأسسي هي بيروت. ربما وجدتُ في بيروت المدَّ القادر، أو الذي كان قادراً بعد حرب الـ ٦٧، أن يقول: «هذه هزيمة» لا «نكسة». وفي حياتي خطان متوازيان: الأدب والهم القومي. كنتُ أحسّ بأطر مسدودة في التركيبة السياسية اللبنانية، وكانت في نصفها غيرَ مكترثةٍ بل كانت معاكسةً للمد القومي العربي. وكما سبق وأجبت فقد كانت ثمة نوافذ ضوء كنت أجدها عند نماذج في التيار المعاكس لفكري القومي. وكنتُ قد ذهبتُ إلى الأردن غداةَ هزيمة الـ ٦٧، وكانت كتبي ممنوعة من دخول الأردن، ومُنحتُ التأشيرة بإذن خاص لأكتب عن الحرب، وكتبتُ عن شهداء فلسطين الأحياء. من الصعب أن تنسى امرأةٌ وجوهَ جرحى الناپالم، ومن الصعب أن تطوي منظرَ النازحين يصِلُون إلى ما يسمى بغور الأردن من على جسر «اللنبي» الذي كان يصل الضفة الغربية بالمملكة الهاشمية؛ وهو جسر ضربه الطيرانُ الإسرائيلي ثم أصلحه الإسرائيليون بألواح من الخشب تهتز تحت الأقدام، وفعلوا ذلك لتسهيل خروج الفلسطينيين من الضفة. هناك وقفتُ ساعاتٍ طويلة تحت الشمس أشاهد نزيف النزوح. ثم تسألني كيف لم أهتمّ أدبياً بالهمّ اللبناني، وهذه المشاهدُ محفورة في نفسي؟

أنا على استعداد رغم دخولي الشيخوخةَ أن أستميت في المحافظة على خصوصيّة لبنان

الذين كتبوا عن لبنان لم يكن لديهم همّان، وأنا أقول ـ بتواضع ـ إنّه قد بزغ في نفسي أملٌ عربيٌّ حين بدأتُ أسمع بشيء اسمه «العمل الفدائي». وابتليتُ بتلك اللوثة من أول لحظة وطأتْ فيها قدماي قاعدةً فدائيةً تحت شجرة «السلّط» الشهيرة. وكما ظنوا أني أجنبية عندما كنت أجول مخيمات النازحين، فقد ظنّ بعضُ الوافدين إلى تلك الخيمة من الفدائيين أنني أجنبية أيضاً. وهناك حصل شيء لم

يسبق أن شهدته في حياتي: شابٌّ يقدم حبّة بندورة، لأبي عمّار، فيعطيني إياها أبو عمار ويقول: «ذوقي ثمرةً من فلسطين». هل تتصور أنّ المرءَ عقب الهزيمة قد بدأ يأكل ثمرةً من فلسطين، لم يأتِ بها إسرائيلي، بل كاكيٌّ مرقَّطٌ، لا يحمل أكثر من قنبلة يدوية وكلاشينكوف، ولا أرى إلا عينيه لأنّ رأسه ملفوفٌ بالحطّة؟ إنها أجمل علاقة حب عشتُها في حياتي. إني أهتزّ إلى اليوم لرمزية تلك الأشياء والمواقف. لقد فاتتْ على لبنان وعلى العرب أجمعين فرصةُ إعادة البناء الذاتي. وببساطة فقد سُلبتُ بهذا العالم الصغير، لكنْ المدوّي آنذاك. وكانت تلك أوّل تجربة ترفض الصورة والصحافة، تحيا في الطبيعة ولا تفكر إلاّ بعبور النهر للقيام بعملية في الأرض المحتلة. لم أسمع قصةً عن أب أو أم أو طفل، لم أسمع قصة عن مال أو ثياب أو أكل، بل كل القصص كانت عن التراب الممزوج برائحة الرصاص. كان ذلك أعظمَ من صراع سياسي محلي، لأنه لم يُلْغِ في كياني ـ ولو للحظة ـ آفاق لبنان وطاقة فنونه. لكني لستُ نادمة على **عصافير الفجر** أو **خط الأفعى** أبداً؛ فمذاق الولادة لثورة يلمسها الإنسانُ أربعاً وعشرين ساعةً في اليوم لَهُوَ تجربةٌ عظيمة جداً. وقد مات بعضٌ من نفسي يومَ سَقَط تلُّ الزعتر؛ وقتها زال من أعماقي وفكري أيُّ شك بأنّ ما يحدث ليس ثورة بل هو الضلال الذي رمى الثورة إلى الهاوية.

لم أعد أكتب فلسطينياً لأنّ الذين وُلدتْ منهم رواياتي رحلوا ورُحِلُّوا

*** لكنّه اتضح أنّ ما أشارت إليه الرواياتُ اللبنانية، وخاصة طواحين بيروت [لتوفيق يوسف عوّاد]، كان أكثر من مهاترات سياسية، بل كان إشارة إلى أزمة وضعٍ داخليٍ في علاقته بالثورة الفلسطينية، وكان إنذاراً بما سيحدث.**

ـ أنا لا أقول إنّ الأعمال الأدبية التي ذكرتَ كانت مهاترات سياسية، بل قلت إنّ ما حدث خلال الفترة التي كنتُ أكتب فيها عن الثورة وللثورة الفلسطينية قد كان فترة مهاترات. والدليل على ذلك هو هشاشة الوضع السياسي في السبعينات. إلا أننا الآن نتحدث عن مسيرة أدبية؛ فأنا لست مؤرخة، والأدبُ مفتوح لكل المبدعين لكي يختاروا ما يشاؤون. إلا أني ـ والحق يقال ـ لم أعد أملك غير نفسي لكي أؤكد: أني لم أقف مكتوفة الأيدي ولا منعقدة اللسان ولا مشلولة الطاقة، في المحافظة على لبنان، ولاسيما أن عائلتي دفعتْ ثمن ذلك غالياً باللحم والدم. في مآزق خطرة كهذه التي حصلت بين لبنان والوجود الفلسطيني بدا أن الفعل أهم من الكتابة، وبخاصةٍ أن الصراع آنذاك كان بالسلاح.

*** كيف استقبلت الأجواءُ الثقافيةُ والسياسية اللبنانية روايتيك عن الثورة؟ وهل شكلتْ لك خصوماتٍ في هذه المستويات؟**

ـ بالتأكيد، إلا أني أعتقد أنني احتفظتُ بمصداقية معينة، ولم أشعر في يوم من الأيام إلا بالاحترام.

*** لمَ لا نخوض في التفاصيل؟**

ـ لأنني أحترم الحرمات، ولن أخترقها الآن، خاصةً وأن الكلام هو على مستوى الأدب لا السياسة.

*** منذ عام ١٩٧٣ بدا التناقض واضحاً ما بين السلطة اللبنانية والوجود الفلسطيني. فما هو موقف ليلى عسيران ذات التوجه القومي المتعاطف مع الثورة، وذات الانتماء إلى وطن يعاني مأزقاً خطراً في تلك الأثناء؟**

ـ هذا سؤال سياسي، رغم أنني كنت أكتب مقالات وجدانية وطنية في مجلة **فلسطين المحتلة** التي كانت تصدر في صبرا. وإنّها لفترةٌ موجعة لم أُشْفَ من وجعها إلى اليوم، ولن أشفى. إنّها علة تعيش فيّ، وتكفي هذه الجملة لتختصر أدباً كان يجب أن أكتبه لليلى عسيران، وللبنان، لأن لبنان أصبح أكثر عظمةً بعد أن خسر أرضاً وخسر بقايا مؤسسات. صحيح أنّ هذه المؤسسات كانت مهلهلةً، إلا أنّ لبنان احتضن بكيانه الصغيرِ الكثيرَ نيابةً عن كل العرب؛ ولم يَضِعْ، بل ظلّ لبنان. أنا لم أعد أؤمن بحرفية «نظرية المؤامرة» في السياسة، ولستُ كذلك ربيبةَ فكرٍ أميركي يعتقد أن الحدث يولِّد حدثاً آخر؛ فالشعوب ـ رغم أنها من دول نامية ـ ليست كياناتٍ آليةً. ومع ذلك فقد بات لديّ اقتناعٌ ـ وربما الكثيرُ من الأدلّة ـ على أن ما بدأ يحدث منذ أيلول ١٩٧٠ إلى ما قبل اتفاقية الطائف، إنّما سبَّبَهُ خَلَلٌ فينا، كعرب، ولاسيما سوء النية الجهنمية. لقد سبق أن حَدَثَ مثلُ هذا في التاريخ، وأُلغيتْ شعوبٌ وأوطان، ويصعب أن يصدِّق أيُّ انسانٍ فيه ذرة عقل أن توالي المجازر بالشكل الذي حدث فيه كان مجرّد صدفة. على الأقل لديّ شجاعةٌ أن أقول اليوم إني كنتُ أنتمي إلى براءة جيلي وصفائه، ولم أقرأ جيداً ما كان يُرسم للثورة الفلسطينية وللبنان. وأكبر دليل على مصداقية هذا الاستنتاج ـ المختصر للغاية ـ هو طبقة السياسيين السائدة في الوطن العربي.

*** ألم تشكل لك فلسطين أكثر من الثورة؟ فبعد قلعة الأسطى اختفى العاملُ الفلسطيني تماماً من رواياتك!**

ـ لقد اتت فلسطين موضوعاً سياسياً بحتاً، وأنا سعيدة بوجود كتّاب فلسطينيين أجدر وأكفأ مني، وأكثر التصاقاً بالواقع. فليحضنوا فلسطين كما حاولتُ أن أفعل عندما لم يكن يكتب عن فلسطين إلا الذين تاجروا باسمها واستفادوا!

*** ألا يعني هذا أنّ لفلسطين ـ كفكرة ـ قيمةً إنسانيةً تختزن وتختزل في تشابكها أبعاداً إنسانية عامة، خاصة وأننا في لبنان ما نزال نعاني قضيّتها مباشرةً، وأنه يوجد في لبنان اكثر من ثلاثمئة الف فلسطيني يعيشون ظروفاً صعبة بعد تخلي ثورتهم عنهم؟**

ـ أنا لا أنكر هذا البعد الإنساني، وأنا أحسّ بالقهر الاجتماعي والقومي والإنساني للفلسطينيين في لبنان، سواء في المخيمات، أو في مخيمات من نوع آخر تعاني الغربة وتمتلك طاقةً فريدةً من استنهاض النفس من أجل عدم التخلي عن الهوية. تلك المجموعة هم أحبّائي وامتدادي، وتواصلي معهم هو بقدر ما يستطيع فردٌ أن يغطي بعضَ عورات التخلي بالحنان.

*** إذن ما هو السبب الرئيسي لغياب العامل الفلسطيني عن رواياتك الأخيرة؟**

ـ يبدو أنّه لم يتسنَّ لك أن تتابع كل نشاطاتي، إذ إنّي لم أصبح ماضياً بعد! فقد تحدثتُ في التلفزيونات ـ التي يشاهدها الناس أكثر ممّا باتوا يقرأون الكتب ـ، وألقيتُ خطاباتٍ كان آخرَها ما قلته في ذكرى غسان كنفاني الخامسة والعشرين. لقد تكلمتُ عن فلسطين في كل تلك المناسبات، بالأمانة المعروفة عنّي. لكنّي لم أعد أكتب فلسطينياً، لأنّ الذين وُلدتْ منهم رواياتي رَحَلوا ورُحِّلوا. فمن هو القارئ الحريص على متابعة فلسطينيات أدبية كانت قيمتُها ذاتَ

يوم أنّها عطاءٌ متواضعٌ من إنسان عربي؟ لو كانتْ هناك حاجة من النوع الذي يُلهِم، لكان قلمي قد سال، إنما ما أشعر به هو الجفاف! ثم إنّ هذه الأرض الطيبة، أرضَ الجنوب اللبناني الخضراء، لها حقٌّ عليّ، وناسها ما زالوا يحتضنون العطاء بالرغم من جوعهم. فثلثُ الأرض عند حدودهم محتلٌّ، ولذلك جاشت نفسي بالآلام وأنا أتابع قصفَ بلدة «برعشيت» كلَّ يوم. لقد ونادتني برعشيت، نادتني كالضوء والإلهام، ولم أكن قد زُرتُها في حياتي، ولذلك تماسكتُ ورحتُ أتجوّل بين القرى المتاخمة للشريط الحدودي [أي منطقة الجنوب اللبناني التي تحتلّها إسرائيل منذ ١٩٧٨]، وكتبتُ **جسر الحجر** التي لم تخلُ من ذكر فلسطين. وفي **شرائط ملونة**، وهو مقتطفات من سيرة حياتي، رويتُ أجمل ما كُتب عن أبي عمّار بلا ألقاب!

*** كثير من رواياتك عالجتْ موضوعَ الحرب اللبنانية، ومنها: قلعة الأسطى وجسر الحجر بشكل مباشر، والاستراحة التي قاربت الحرب اللبنانية كتاثير طاغ على الحياة لكنه لا يمنع هذه الحياة. فهل اطّلعتِ على روايات الحرب اللبنانية، وما كان موقفك منها؟**

ـ من المبكر أن تَحْكم روائيةٌ على مجمل إنتاج الأدب خلال الحرب، إلا أني ـ ومع احترامي لكل من كَتب أدباً عن الحرب ـ ما زلت أذكر ما قاله إنسانٌ عزيز عليّ توفاه الله، ومن حقّه علينا أن نذكره، وهو ميشال أبو جودة. فقد قال لي مرةً: «كان يجب علينا، واحداً واحداً، أن نكتب مذكرات يومياً، لكي نصف هَوْلَ ما حدث لنا؛ فيستطيع، حينئذ، أحدُهُمْ أن يكتب رواية بعظمةِ أدبِ دوستويفسكي». ولعلّ ميشال كان يتذكّر أنني قلت له، ولصديق آخر في بداية وعيي: «ليتني أصبحُ كاتبةً مثل دوستويفسكي». والأدب اليوم لا بد أن يستند إلى أرشفة لا تسمح بها السرعةُ الزمنية، وتدافُعُ الأحداث، والهبوط النفسيُّ ثم الارتفاع الذي نحن ـ في لبنان ـ مرغمون عليه لكي لا نسقط في الإحباط والضياع.

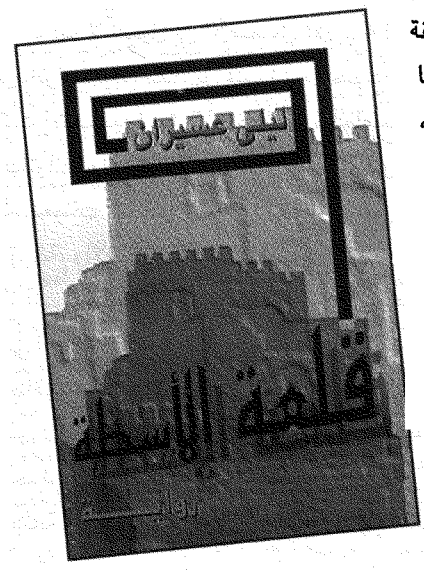

أتمنى أن يكون هناك من هم قادرون على ترك مسافة بينهم وبين أنفسهم وبين زمن الحرب، لكي يكتبوا مثل دوستويفسكي.

*** بدأتِ في الصحافة، ومارستِها مع كتاباتك الروائية الأولى، فما هو سبب عدم استمرارك فيك؟**

ـ كتبتُ خلال الحرب مجموعةَ أشياء «حلوة» فعلاً، ونشرتُها في الصفحة الثقافية لجريدة **السفير**، ومنها قصتان نسيتُ اسمهما. وبودي أن أنوّه ـ بالمناسبة ـ بكتابة طلال سلمان أثناء الحرب، وهو الذي ترجّل إلى «صف الذين لا صوت لهم»، فكان صوتَنا وملاذَنا، وكتب أرقَّ وأصدقَ مآسينا. إنما شعرت أنه ليس لي مكان. لم يعد هذا العمل [الصحفي] لي؛ فإذا كتبتُ في الصحف فإنّ ذلك سوف يستهلكني أدبياً.

*** بالعودة إلى رواياتك، ألا تلاحظين أن رواية الاستراحة أرستْ مفهوماً جديداً للوطن عندك؟**

ـ من هو الذي لم يتأثر، أو يتحوّل، خلال الحرب؟ من الذي لم يشعر أنه مفرَّغ من معانيه، وقد كان الوطن ـ حسب التعبير اللبناني الدارج ـ في «الجيبة»، أي كان تحصيلاً حاصلاً؟ لكن مرَّتْ فتراتٌ مرعبةٌ كنا نشعر خلالها بشكل ملموس أن الأرض تُسحب من تحت أقدامنا. كنّا كلّ صباح نصحو ونتساءل: «هل نحن أحياء، وهل نملك وطناً؟» لم يبقَ امرؤٌ لم يطرح السؤال التالي مرةً بعد مرة: «أين الحماية إذا كان الوطن لم يعد يعطينا حماية في أحضانه»؟ والعظيم هو أننا بتنا أكثر التصاقاً بحقنا في الوطن. أما إذا كنتَ تظن أن انكفائي عن تناول الموضوعات التي كانت تُطرح قبل الحرب إنّما يعني انقلابي عليها، فإني أبتسم وأقول: أوَلا تدرك عمق معاناة الحرب؟ ليس هناك أيُّ لبنانيّ يستطيع أن يقول إنه الآن كما كان عليه من قبل. لقد علّمتنا الحربُ حبَّ الوطن... كالحبيبة التي كادت تتلاشى بين أيدينا، ونحن لا نملك وسيلة للمحافظة عليها.

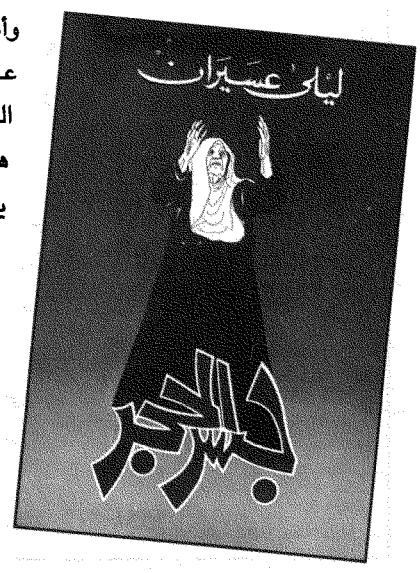

*** لكنني أقصد «مفهوم» الوطن. ففي جسر الحجر يبدو الوطن، رغم المصائب، بامان، بين يَدَيْ ذلك المقاتل الجنوبي وشعبه الجبّار في مواجهة العدوان الإسرائيلي والاقتتال الداخلي على حد سواء. وأمّا في الاستراحة، فهنالك تسليم برغبة في الحياة وحب الوطن رغم الموت والحرب، ورغم صغر المسافة الزمنية بين الروايتين/الرؤيتين؟**

ـ لأنه عندما انتهت الحرب ألفينا أنفسنا أمام جثة. فكيف ستدبّ الحياة في هذه الجثة؟ لقد كتبتُ عن الحياة بعد الحرب في **طائر من القمر**. فهل تعرف أنّ أحداً من الناس لم يفهم ماذا يعني «طائر من القمر»؟ وأنّ أحداً لم يعلِّقْ على الإهداء أو فهمه؟!

أنا في **طائر من القمر** قفزتُ إلى القمر، إلى المعجزة، وآمنتُ بها وبدأتُ أرشَفَةَ هذا الحس الوجداني. فكان قوياً إلى درجة أنه لبسني، فأخذتُهُ إلى الناس، إلى مجموعة من المثقفين الذين أؤمن بمقدرتهم على قراءة الناس، وفرشت أمامهم مشاعري لأنني كنت أعرف ـ من ممارساتهم ـ أنّ لديهم مصداقيةً، وقبلوا أن يذهبوا معي إلى القمر، هم ومئات غيرهم من كل طبقات الناس، وكلهم كانوا الطائر الذي سوف يُقبل على إعادة المعجزة إلى الوجدان اللبناني والعربي. هذه الرؤية هي الأمل لأنّ الناس، الذين يشكلون تربة المثقفين، هم الذين سوف يعيدون بيروتَ العاصمةَ الرمزَ إلى فعاليتها. نحن لم نتبيّن إلى اليوم معالم الوطن، لأنه جنين في حالة التكوين. لكنّي لن أسمح لأحلامي أن تنطفئ مرة ثانية. بل سوف أظل أحلم حتى بعد الموت؛ فالحلم بالنسبة إلى الأديب والمبدع هو سلالم الأمل.

*** لكن طائر من القمر تشكل احتفاءً بعودة المدينة عمرانياً، رغم الآراء الكثيرة حول موتها بشرياً، وذلك على عكس رواياتك الستينية**

التي التفتتْ إلى الإنسان وضياعه. فكيف تعللين ذلك؟

ـ لبنان الماضي مـــات. وأنا لا أريد أن أبكي على الأطلال، وإن كانت أطلال نفسي. هناك شخص اسمه «الحاج» وهو مرافق زوجي [رئيس الوزراء اللبناني السابق أمين الحافظ]. ويوم فقدتُ بيتي، لم يكن في بيروت بصيصُ ضوء، ولكني خرجتُ أمشي في الشارع، وكان ذلك مستحيلاً تقريباً. كانت القتامة رهيبة، فقفلتُ عائدةً وجلستُ على سلالم الفندق الذي لجأتُ إليه أبكي. وتركني «الحاج» وجلس على السلالم بعيداً عني، وبعد قليل عاد إليّ وقال بصوت جهوري: «بس يا ست، حدّيها [أي: ضعي حدّاً]. ما حدث حَدَثَ». وهكذا فقد وضعتُ بعد الحرب حدّاً، وركضتُ إلى المستقبل راضيةً بأبسط الحقوق. فلقد ذقتُ الخراب والغربة، وكان أسخف ما مررت به لا يساوي دقيقة لقاءٍ بأرضي، بناسي، وبدأت من تحت الصفر. إنه وهم كبير أن نقف عكس جاذبية الأرض وقوانينها. الحركة ـ وهي مفهوم تجريدي في هذا الحال ـ لا تعود إلى الخلف، ولا تتوقف، ولا ترحم، ولا تنتظر؛ فإما أن نكون أبطالاً مرة وثانيةً وثالثة، ونلحقَ بها، وإما أن نسقط في التشاؤم. أنا أرى كلَّ العلل والمآسي وقد امتلأت بخلايا قد استُنْزِفَتْ فماتت، إلا خلايا الوجدان والعقل. ولهذا فإنّي سوف أمشي، وأكتب مع الحركة.

*** أليس هذا موقفاً سياسياً؟**

ـ لا، لقد بِتُّ في مأزق بين الصدق غير الساذج وبين المراعاة. وأنا أصلاً وُلدتُ بعكس الناس: فتركيبتي المعنوية مستقلّة، وقد تعبتُ على تنميتها، وغذّيتُها بغزارة. عشت، في كل عمري وحتى الآن، حقيقتي في الكواليس الخلفية لما يتعارف عليه البشر بـ«المجتمع» و«القوانين»، ويحقّ لي الآن أن أضع حداً للدور الثنائي الذي كنتُ أمارسه. أستفيق الآن من تجربة تلخّص الحياة ومعانيها، أفلا يحقّ لي وأنا أدخل القرن الواحد والعشرين وتعقيداته أن أختار سهلاً واسعاً أسمع فيه أمواجَ بحر بيروت وأحيا صدقي وحقيقتي وأكتُب مثلما لم أكتبْ من قبل؟ ها أنا أخيراً أُمسك حريتي بيديّ! فالحرية ليست مفهوماً سياسياً وحسب، بل هي الطريق الذي يكتشفه الإنسان من تراكم المعاناة الحقيقية، والعذابات التي تتخطى حلاوةَ الروح إلى أن ترى السهل، وتسمعَ أمواجَ البحر. فنحن لسنا قديسين ولا أنبياء ولا صحابة، ومن حقي الآن أن أعود إلى إنسانيتي وقد أصبحت كياناً متماسكاً. وأكتفي بهذا.

بيروت

ليلى عسيران في سطور

* **ولدتْ في صيدا سنة ١٩٣٤.**
* **انتقلتْ الى مصر حيث تابعتْ دراستها الثانوية.**
* **درست العلوم السياسية والفلسفة في الجامعة الأميركية في بيروت.**
* **عملتْ في الصحافة في لبنان أولاً، حيث كتبتْ في دار الصياد وجريدة السياسة التي أصدرها الرئيس الراحل عبدالله اليافي. ثم في مصر حيث كتبتْ في مجلتي روز اليوسف وصباح الخير.**
* **تزوجت من الرئيس أمين الحافظ عام ١٩٥٨ وانجبتْ ولدها الوحيد رمزي عام ١٩٥٩.**
* **نشرتْ روايتها الأولى لن نموت غداً عام ١٩٦٢ عن دار الطليعة.**
* **كانت أول امرأة عربية تقيم بين الفدائيين الفلسطينيين في قواعدهم العسكرية في أغوار الأردن لمعايشتهم، وكتابةِ عمل روائي خاص بعملياتهم. ونتيجة لهذه التجربة صدرت روايتان هما: عصافير الفجر، وخط الأفعى.**
* **عاشت في منطقة جسر الباشا المحاصرة خلال حرب السنتين اللبنانية (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) وأصرتْ على البقاء في بيتها هناك. وقد كتبت عن هذه التجربة روايتها قلعة الأسطى.**
* **ترددت في أوائل الثمانينات على قرى الشريط الحدودي [في الجنوب اللبناني المحتلّ]، حيث صوّرتْ تجربةَ الصمود والنضال بوجه الاعتداءات الاسرائيلية الوحشية في روايتها جسر الحجر.**
* **مُنحت عام ١٩٩٧ وسام الاستحقاق اللبناني من رتبة «فارس» تقديراً لكل أعمالها الروائية.**
* **رواياتها:**

لن نموت غداً	١٩٦٢
الحوار الأخرس	١٩٦٤
المدينة الفارغة	١٩٦٦
عصافير الفجر	١٩٦٨
خط الأفعى	١٩٧٢
قلعة الأسطى	١٩٧٩
جسر الحجر	١٩٨٦
الاستراحة	١٩٨٩
شرائط ملونة	١٩٩٤